ثانياً
مَدْخَلٌ إلى التَّحْليلِ الجَمَاليّ

قصة يوسف قصَّة فنيَّة، أي إنها (تصَوِّر حدثاً متكاملاً له بدايةٌ ووسطٌ ونهايةٌ، تقوم بين أجزائه الثلاثة علاقة عضويَّة)[1].

كما تتوافر فيها سائرُ مقوِّمات القصة الناجحة من الشخصيات المتعدِّدة، والأحداث المتساوقة بشكل طبيعي، والحوار الموضوعي، والتدفق، والسلاسة، والتمثُّل بالمعنى، والغنى بالإيحاء والدلالة، وتوجد فيها كلّ العناصر والخصائص الفنيَّة التي نصَّ النُّقاد على ضرورة احتواء القصة عليها مثل: الهيكل السردي المتَّصل، والأسلوب الوصفي الجيد، وعدم الاستطراد في تصوير الحوادث استطراداً يخرج بها عن الجوِّ العام للقصة، والتشويق الذي يدفع القارئ إلى متابعة قراءة حوادثها في لهفةٍ حتى النهاية.

وسنحاول الآن إيضاح بعض أبعاد المنهج الفنيّ وسماته في هذه القصَّة موثقة بعناصر موضوعية من القصة نفسها.

(١) محمد كامل حسين المحامي: القرآن والقصة الحديثة، ص١٣.

الافتتاحُ (الاستهلالُ):

﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ * إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هَذا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾.

افتتحت القصة بهذه الآيات الثلاث لتؤكد على قضايا ثلاث: فرادة السِّمة البيانيَّة للقرآن، وتمثُّل معانيه في شكلٍ لسانيٍّ مفهوم ومقنع للعقل، ثمَّ الإعلان عن القصة بصيغةٍ مثيرةٍ ومشوِّقةٍ. فهي من أحسن القَصص كما أنها قصة جديدة بشكلها الفني هذا.

العَنَاصِرُ التَّشْوِيقيَّةُ:

بعد هذه المقدِّمة التشويقية، وقبل أن تقطعَ القصة (إلاّ مرحلة يسيرة جداً من بنائها السردي)[1]، تبدو ألوان أربعة من التشويق الذي تزداد حدته تصاعداً: (فالنوع الأول كان أثرُه غريزة حبّ الاستطلاع بذكر هذا الحلم الغريب.. والنوع الثاني كان أثرُه الخوف على بطل القصَّة بالتحذير الذي قاله الأب.. والنوع الثالث كان بذلك التصوير الرائع لجوِّ التآمرِ على القتل.. وأما النوع الرابع من التشويق فهو مدفوع بعاطفة الشفَقة أو العطف على البطل)[2].

(١) محمد كامل حسين المحامي: القرآن والقصة الحديثة، ص٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص٤١.

الحَبْكَةُ رُؤْيا.. ورُؤَى أُخْرى:

عقدة القصة تتمثل في الرؤيا ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾، وإذا كان الأب استشفَّ لابنهِ من هذه الرؤيا دلائل رفعةٍ وسموٍّ بدت له من منافذ آفاق الغيب التي استبصرها ببصيرته الثاقبة: ﴿قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، فإنَّ الابن (يوسف) لم يكن يتيقَّن من تحول رجاء أبيه الشفيق إلى واقعٍ في حياته المستقبليَّة.. وحين عانق مصيره السعيد بعد معاناةٍ أليمة استهلكت سنواتٍ ناضرةً من عمره، وحيداً في البئر ومجاهداً ضدَّ الفتنة في القصر، ومحروماً من بهجة الحياة ونعيمِها في السجن.. فهتف بأبيه - وهو يستقبله وإخوته في قصر العزيز بمصر - قائلاً في فرح غامر: ﴿يا أَبَتِ هَذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّاً﴾

وهكذا ترتبط النهايةُ مع البداية وتعود إليها فيما يسمى بالبناء الدائريّ في القصة.

رُؤىً ذاتُ دلالاتٍ:

وقد وردت في السياق القصصيّ رؤىً أخرى: رؤيا العزيز،

ورؤى المساجين مع النبيِّ يوسف عليه السلام، وإذا كانت هذه الرؤى مع تأويلاتها اليوسفيَّة الصائبة المعجزة ذات دلالة وقتية على صدق نبوّة يوسف للمصريين الذين كانوا يهتمون حينذاك بالرؤى والتنبؤات، فإنَّ فيها إشارة فنية إلى أن الواقع في منهج الإسلام العلميّ، والأدبيّ، ليس هو الواقع المحسوس وحسب سواءً في كينونة الإنسان أو العالم من حوله، بل إن هذا الواقع القريب والمحسوس، ليس إلاّ جزءاً صغيراً من الواقع الأعمّ الأكبر؛ تلك هي الحقيقةُ التي لم يجد أغلب العلماء والفلاسفة بُدّاً من الاعتراف بها في ضوء ما بدا لهم من خوارق هذا العالم وعجائبه المتكاثرة[1].

الحُلْمُ والعِلْمُ:

علماء النفس لا يوافقون (فرويد) على أنَّ الأحلام ليست سوى رموز جنسيَّة تنطلق من اللا شعور أثناء النوم، فقد ذهب (يونج) مثلاً إلى أن الأحلام هي: (رسالة اللا شعور الحكيم البعيد النظر المسلَّح بكل خبرة وتجارب وثقافة الجماعة، تهدف إلى تحقيق النظام في حياة الحالِم وترشده إلى الاتجاه الذي يحسن به أن يسلكه)[2]، كما أثبت علماءُ النفس وجود

(١) ج. أ. ج. رايز، عصر الخوارق.

(٢) محمد العزب موسى: حقائق وغرائب، ص١٠٥.

أنواع شتى من الأحلام مثل: (أحلام الهَلْوَسة أو التي لا معنى لها، والأحلام الخيالية، والأحلام الدراميَّة، والأحلام المؤلمة، والأحلام المعبِّرة عن مشاكل عاطفية، والأحلام الخلاّقة الموحية باكتشافٍ في العلم أو الفنّ، وأحلام التخاطر مع ذهن آخر، وأحلام الاستبصار أو الرؤية عن بُعد، وأحلام التنبؤ بأحداث مقبلة)[1]. وهذا النوع الأخير هو ما رآه الحالمونَ في قصة يوسف في صيغة رمزية فك يوسف رموزها بملكة إلهيَّة فريدة، وعلى هامش الحديث عن الأحلام نرى من المفيد عرض التفسير الإسلاميّ لها، يقول (ابن القيم): (والرؤيا كالكشف منها رحمانيّ، ومنها نفسانيّ، ومنها شيطاني، قال النبي ﷺ: «الرؤيا ثلاثةٌ: رؤيا من الله، ورؤيا تحزينٍ من الشيطان، ورؤيا مما يُحَدِّثُ بها الرجلُ نفسَه في اليقظة فيراه في المنام»[2].

* * *

(١) المرجع السابق: ص٩٩-١٠٠، ١٠٥.

(٢) ابن قيم الجوزية: تهذيب مدارج السالكين، ١/ ٧٤. والحديث أخرجه النّسائي في عمل اليوم والليلة (٩٠٣).